

أفعال الكلام في "إحكام صناعة الكلام" - لابن عبد الغفور الكلاعي
Act of speech and the tightening of speech making- by
Ibn Abd al-Ghafoor al-Kula'ii

أ. مزابية وردة[‡]

أ. د. حسين دحو[§]

تاريخ القبول: 2021.10.03

تاريخ الاستلام: 2021.06.15

ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى البحث عن "أفعال الكلام" في كتاب "إحكام صناعة الكلام" لابن عبد الغفور الكلاعي؛ ذلك من خلال المفهوم والأنواع والوظيفة مستيرين في خطانا بالدرس التداولي المعاصر، وهي في الحقيقة إعادة قراءة لتراثنا النقدي ومقارنته مقارنة تداولية للكشف عن ذلك البعد التداولي في إرساء نظرية نقدية للنثر العربي، انطلاقاً من استثمار مفهوم "الفعل الكلامي" في قراءة موروثنا النقدي، وتتمين جهود علمائه، وإثراء لهذا التراث بمزاوجة ما تقدم من جهود أسلافنا بالتصور الذي قدمته الدراسات اللسانية الحديثة لهذا المفهوم .
كلمات مفتاحية: أفعال الكلام؛ الكلاعي؛ الخطاب؛ الخبر والإنشاء؛ المتلقي.

Summary: This study shed a light on the **Act of speech** in the book of "IhkamSa'naatAlkala " by Ibn Abd al-Ghafoor al-Kula'ii over the concept, types and function that

[‡]جامعة قاصدي مرياح ورقلة، قسم اللغة والأدب العربي، البريد الإلكتروني ouarda.mezabia@gmail.com (مؤلف مرسل).

[§] - جامعة قاصدي مرياح ورقلة، قسم اللغة والأدب العربي البريد الإلكتروني dahoussine@gmail.com

led us to use on our research the present deliberative lesson. Which is in fact, a re-reading of our critical heritage and its comparison of a deliberative approach to reveal a deliberative dimension in establishing a critical theory of Arab prose. As well as, by investing the concept of "Act of speech" in reading our critical heritage, and appreciating the efforts of its scholars, and enriching this heritage by coupling the efforts of our predecessors with the perception provided by modernist linguistic studies of this concept.

Key words: Act of speech - al-Kula'ii-speech -Part of a statement and art of composing-reader.

المقدمة: لقد أفرزت الدراسات اللسانية الحديثة توجهها مستقلا يُدعى التداولية يُعنى بالخطاب وأطرافه ومقاماته، كما يُعنى بآليات التّواصل اللّغوي النّاجح. وذلك لا يعني أبدا أن تلك الدراسات اللّغوية الحديثة قد أحرزت سبق في ظهور النّظرية التداولية وإنما كان لتراثنا النّقدي أبعادا للدرس التّدولي في إرساء نظرية للأدب العربي تنظيرا وتطبيقا؛ فقد عالجا مباحث تعدّ من صميم التداولية كالسياق والحجاج والمقام وأفعال الكلام، وعليه اعتمدنا على مفهوم "أفعال الكلام" باعتباره أهم أداة من أدوات المقاربة التداولية في قراءة هذا الكتاب والكشف عن المنحى التّدولي فيه، ما يستدعي البحث في هذا المفهوم وتطبيقاتها في كتاب "إحكام صنعة الكلام" وهو من الكتب التي أثارت قضايا النثر، دبّجه صاحبه لدراسة النثر وضروريه دون الشعر بسبب الغبن الذي لحق بالنثر على يد النقاد (الغامدي، 1995)، أما صاحب الكتاب فهو ابن عبد الغفور الكلاعي الوزير الأشبيلي الأندلسي كاتب السلطان أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ملك المرابطين، وهو من أعلام القرن السادس للهجرة (الكلاعي، 1968). وتعد نظرية أفعال الكلام من أهم نتاجات الدرس اللساني التّدولي، ومحورا بارزا من محاوره، وتحولا منهجيا في البحث اللغوي

الذي عمد إلى دراسة العناصر اللغوية والبنى الذهنية ودلالاتها انطلاقاً من علاقة الأفعال بالأقوال بحسب السياق ومقامات الخطاب (روقاب، 2016).

1 أفعال الكلام في الدراسات اللسانية المعاصرة: وهو أول مفهوم يطالعك في درس اللساني التداولي المعاصر؛ «حيث يشكل مفهوم الأفعال الكلامية مضغعة الاهتمام الأولى للتداوليين» (غيطاس، 2015)، ولا يمكننا البحث في مفهوم أفعال الكلام في المدونة إلا بالرجوع إلى الإطار المفاهيمي الذي قمنا ببحث الظاهرة في نطاقه. ومن ثم يتعين علينا العودة إلى ما يسمى "نظرية الأفعال الكلامية" التي جاء بها الفيلسوف ج. أوستن، وطورها تلميذه ج. سيرل بإعطائها صيغتها النموذجية النهائية (صحراوي، 2005)، وبالرجوع «إلى ما كتبه الفيلسوفان. حول هذا المفهوم اللساني/التداولي الجديد، فإن "الفعل الكلامي" يعني: التصرف (أو العمل) الاجتماعي أو المؤسساتي الذي ينجزه الإنسان بالكلام، ومن ثم فـ"الفعل الكلامي" يُراد به الإيجاز الذي يؤديه المتكلم بمجرد تلفظه بملفوظات معينة، ومن أمثله: الأمر، والنهي، والوعد، والسؤال والتعجب، والإقالة، والتعزية، والتهنئة، فهذه كلها "أفعال كلامية" (صحراوي، 2005)».

هذا وقد توصل أوستن في آخر مرحلة من مراحل بحثه إلى تقسيم "الفعل الكلامي الكامل" ثلاثة أقسام تتفرع منه على النحو الآتي:

أ- فعل القول (الفعل اللغوي) ويشتمل على أفعال فرعية تمثلت في المستويات اللسانية للغة وهي على الترتيب: المستوى الصوتي، والمستوى التركيبي، والمستوى الدلالي. وهي ما أطلق عليها أوستن: الفعل الصوتي والفعل التركيبي والفعل الدلالي.

ب- الفعل المتضمن في القول: وهو الفعل الإنجازي الحقيقي وهو المقصود من النظرية لما يحمله من قوة إنجازية ومن أمثله ذلك: السؤال، والإجابة عنه

والتأكيد، والتحذير، والوعد والأمر .. إلخ. والفرق بين الفعل الأول والفعل الثاني هو أن الثاني هو القيام بالفعل أما الفعل الأول فهو مجرد النطق به. ت- الفعل الناتج عن القول وهو الفعل التأثيري؛ أي التأثير في المشاعر والأفكار مثل: الاقتناع، والتضليل، والإرشاد، والتنشيط.. إلخ(صحراوي، 2005). وقد توصل أوستن إلى تقسيم الأفعال الإنجازية تقسيماً لم يرض عنه إلا باعتباره تقسيماً مبدئياً على النحو الآتي:

أ- الحكميات ويعني به إطلاق أحكام على واقع أو قيمة، ومن أمثلتها: براً، قيم، حكم. إلخ.

ب- الإنفاذيات وتقوم على استعمال الحق أو القوة ومن أمثلتها: عين سمي أعلن. إلخ.

ت- الوعديات وهي التزام المتكلم بفعل ما، من أمثلتها: وعد نذر أقسم. إلخ.

ث- السلوكيات وهي ترتبط بإفصاحات المتكلم عن حالات نفسية تجاه ما يحدث للآخرين، ومن أمثلتها: شكر، اعتذر، هنا، عزي، انتقد. إلخ.

ج- التنبهيات وتبين علاقة أقوالنا بالمحادثة أو المحاجة، من أمثلتها: أثبت، أنكر، أجب، شرح، وصف. إلخ(هشام، 1994).

وقد أعاد سيرل تصنيف أوستن للأفعال الإنجازية بعد أن بين ما فيها من أوجه الضعف؛ ذلك أنه رأى بأنها لم تقم على أساس واضح أو متين، وقد جعلها كأوستن خمسة أصناف على الآتي:

أ- الإخباريات: والغرض الإنجازي منها هو نقل المتكلم لواقعة ما، وأفعال هذا الصنف تحتل الصدق والكذب.

ب- التوجيهات: وغرضها الإنجازي هو توجيه المتكلم المخاطب إلى فعل شيء ما في المستقبل، ويدخل في هذا الصنف الاستفهام، والرجاء والاستعطاف، والتشجيع، والدعوة، والإذن، والنصح.

ت- الإلزاميات: وغرضها الإنجازي هو التزام المتكلم بفعل شيء ما في المستقبل.

ث- التعبيرات: وغرضها الإنجازي هو التعبير عن الموقف النفسي تعبيراً يتوافر فيه شرط الإخلاص، وكل ما هو مطلوب في التعبير عن القضية، ويدخل في هذا الصنف أفعال الشكر، والتهنئة، والاعتذار، والتعزية، والترحيب.

ج- الإعلانات والسمة المميزة لهذا الصنف من الأفعال أنّ أداءها الناجح يتمثل في مطابقة محتواها القضوي للعالم الخارجي، وأهم ما ميزها عن الأصناف الأخرى، أنها تحدث تغييراً في الوضع القائم.

(2) أفعال الكلام في التراث العربي: قد شغل هذا المفهوم علماءنا العرب المتقدمين حين تجلت التداولية في تراثهم «في تلك الأسس والمبادئ والمفاهيم الإجرائية التي اعتمدها كثير من .. نحائنا وبلاغيينا - صراحة أو ضمناً - في دراسة اللغة العربية ورصد خصائصها، ونذكر منها على الخصوص: مفهوم "الفعل الكلامي"، وما يتعلق به من مبادئ ومفاهيم إجرائية أهمها: مراعاة سياق الحال، والغرض الذي يريده المتكلم من كلامه والفائدة التي يحصيها المخاطب من الخطاب» (صحراوي، 2005)؛ أي أن "الفعل الكلامي" هو الإنجاز الذي يؤديه المتكلم بمجرد تلفظه بملفوظات معينة، وإذا «طبقتنا هذا المعنى على اللغة العربية فإن المقاصد والمعاني والإفادات التي تستفاد من صيغ التواصل العربي وألفاظه: كمعاني الأساليب العربية المختلفة، خبرية كانت أم إنشائية .. هي التي تمثل نظرية "الأفعال الكلامية" في التراث العربي وتجيب عن السؤال المتعلق بإمكانية تطبيق هذا المفهوم التداولي المعاصر على التراث اللغوي العربي» (صحراوي، 2005)؛ فتلك المعاني والمقاصد هي أفعال كلامية بالنظر إليها على أنها ترمي إلى صناعة أفعال ومواقف اجتماعية أو فردية بالكلام والتأثير في المتلقي ما يحمله على فعل ما، أو تركه، أو إصدار حكم، أو

توكيده، أو التشكيك فيه، أو نفيه، أو وعد، أو وعيد، أو استفسار، أو إبرام عقد أو فسخه، أو التعبير عن حالة نفسية(صحراوي، 2005)؛ ومن ثمّ يمكن القول بأن الأفعال الكلامية في التراث العربي قد جاءت ضمن نظرية الخبر والإنشاء فدرس علماء اللغة ضمن هذه النظرية من خلال ظاهرة الأفعال الكلامية(غيطاس، 2015)؛ مستعينين في ذلك بالأغراض التي يمكن أن يحملها الخطاب.

ومن خلال ما تقدّم من عرض لما توصلت إليه الدراسات اللسانية الحديثة في مجال تأسيس نظرية للأفعال الكلامية وإرساء مفهوم لها وما تضمّنته نظرية الخبر والإنشاء في التراث العربي يؤكد أن ظاهرة "الأفعال الكلامية" قد بُحثت منذ زمن مبكّر من قبل طوائف متعددة؛ فقد بحث في هذه الظاهرة نفر من النحاة والبلاغيين من أمثال سيبويه (ت180هـ)، وعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) وأبو يعقوب السكاكي (ت626هـ)...الخ، ومنهم فقهاء وأصوليون كابن رشد القرطبي (ت595هـ)، وفخر الدين الرازي (ت606هـ) وسيف الدين الأمدي (ت631هـ)...الخ، كما تجاوز البحث هؤلاء إلى الفلاسفة والمناطق من أمثال: أبي نصر الفارابي (ت338هـ)، ونجم الدين القزويني (ت493هـ)...الخ(صحراوي، 2005، الصفحات 6-7)، غير أن غايتهم من البحث في هذه الظاهرة لم يكن غاية في ذاتها وإنما جعلت مدخلاً لفهم علوم أخرى، وهي علوم لغوية في الغالب، فلم يفردها في البحث والتأليف ولا قصدوا لذاتها(صحراوي، 2005). وذلك ما وجدنا عليه نقادنا المتقدمين ومنهم الكلاعي محور الدراسة؛ ذلك حين العودة إلى مدونته "إحكام صنعة الكلام" ألفيناه تارة يشير إلى بعض المفاهيم المتعلقة بأفعال الكلام كالسياق والمقام وأحوال المتلقي والقصد .. وتارة أخرى يستعين بها في عرض قوانين الكتابة وآداب الكاتب، وذلك ما سنوضّحه في سياق عرضنا لأفعال الكلام في المدونة.

3) أفعال الكلام في كتاب الكلاعي:

أ- في المفهوم: من المعلوم أن نظرية أفعال الكلام في تراثنا العربي لم يتناولها علماءنا من أجل تأسيس هذه النظرية ومفاهيمها ولم تكن غاية في حد ذاتها وإنما تناولوها كوسيلة لدراساتهم اللغوية والبلاغية والنقدية وغيرها، ومن ثم لا نستغرب حين لا نلقى لأفعال الكلام في تراثنا مفهوماً واضح المعالم قد صيغ لها أو جهازاً مفاهيمياً لهذه النظرية. وما عثرنا عليه في تراثنا العربي هو توظيف لهذا المفهوم في ممارساتهم اللغوية والنقدية وغيرهما من المباحث التراثية بصفته وسيلة لا غاية في حد ذاتها، ومن ثم جعلت أفعال الكلام مدخلاً لفهم علوم أخرى، وهي علوم لغوية في الغالب، فلم يفردها في البحث والتأليف ولا قصدوها لذاتها (صحراوي، 2005). وبالعودة إلى كتاب الكلاعي حاولنا استلال ما يمت لمفهوم الأفعال الكلامية بصلة والكشف عن تجليات البعد التداولي ممثلاً في "أفعال الكلام"، وبيان سبقه إلي ما توصلت إليه الدراسات التداولية الحدائثة في حقل الدرس التداولي. ومن أجل بلوغ تلك الغاية اخترنا له مقولةً يوجه فيها الخطيب إلى بعض آداب الخطبة فقال: «ومما يُستحب للخطيب أن يرتاد الخطبة قبل أن يقوم لها، ويؤلفها قبل أن يخطب بها. فان ذا النورين خطب يوماً فأرتج عليه، فقال: إنكم إلى إمام فعّال أحوج منكم إلى إمام قوّال. إن أبا بكر وعمر كانا يرتادان لهذا المقام مقالاً. فإذا كانت هذه الطائفة الأجلية والعترة الأفضلية، ترتاد لهذا المعنى، وهي في الفصاحة والرجاحة ماهي، فما ظنك بغيرها؟» (الكلاعي، 1968)، ومن هذا القول يمكن استخلاص إشارة ضمنية لمفهوم الفعل الكلامي من خلال العبارة القائلة: "إنكم إلى إمام فعّال أحوج منكم إلى إمام قوّال"؛ فهو يخبرهم بحاجتهم إلى إمام يفعل ما يقول ولا يكتفي بالقول دون إنجاز الفعل الناتج عنه، وهي العبارة التي قالها ذو النورين حين أرتج عليه في خطبته؛ أي اضطرب عليه الكلام، والمراد بقوله

ذلك هو حاجتهم إلى إمام فعّال يكون لهم قدوة أكثر من حاجتهم إلى إمام قوّل يكتفي بتوجيه النصح والإرشاد، ولا شك بأن أقوال الإمام هي إنجازٌ للأفعال القولية الواردة في خطبته لتحقيق من يصبو إليه من أغراض كتغيير سلوك، أو اتخاذ موقف، أو تعديل فكرة، أو تعزيز مشاعر باستخدام أساليب اللغة العربية من تقرير واستفهام وأمر ونهي ونداء ودعاء وغيرها من الأساليب وأغراضها البلاغية التي يوظفها الخطيب بحسب أحوال المتلقي وطبقاته المقامية، ولا نظن أن ذلك يختلف عمّا ذكره مسعود صحراوي في كتابه "التداولية عند العلماء العرب" حول مفهوم الفعل الكلامي الذي عدّه «نشاطاً مادياً نحوياً يتوسل أفعالاً قولية (ActesLocutoires) لتحقيق أغراض إنجازية (ActesIllocutoires) (كالطلب والأمر والوعد والوعيد..إلخ) وغايات تأثيرية (ActesPerlocutoire) تخص ردود فعل المتلقي (كالرفض والقبول)» (صحراوي، 2005). كما يشير الكلاعي أيضاً في مقولته هذه إلى المفاهيم الإجرائية التي تتعلق بالفعل الكلامي من خلال توجيه الخطيب إلى تأليف الخطبة قبل إلقائها؛ وذلك أسلم له من إلقائها ارتجالاً، كما يوجّهه إلى مراعاة المقام في صياغة الخطاب فيكون أقرب إلى التأثير في المتلقي ومن ثم يتحقّق غرضه من إلقاء خطبته حين لفت انتباه الخطيب إلى ارتياد الخطبة قبل إلقائها وتأليفها قبل أن يخطب بها. فالفعل الكلامي في النهاية هو فعل غايته التأثير في المتلقي، إما بالإيجاب أو بالسلب، وبالتالي تحقيق غرض إنجازي معين (زابور، 2019). ولم يكتف الكلاعي بتلك الإشارة للمقام وإنما جعل في موضع آخر من كتابه مراعاة الخطيب للمقام الذي تُقال فيه الخطبة دليلاً على حدقه وبراعته ونجاح بضاعته وصناعته؛ والمقام -كما نعلم- من المفاهيم التي تقوم عليها نظرية أفعال الكلام فقال الكلاعي: «ومما يستحب للخطيب أن يشير في خطبه إلى مشاكل الحين والحال، فإن ذلك أنطق بحذاقته وبراعته، وأدّل على فور بضاعته

وصناعته» (الكلاعي، 1968)، فمراعاة المقام -إذن- في تأليف الخطبة وإلقائها يعدُّ شرطاً في نجاحها؛ ذلك أن نجاح الفعل الناتج عن القول ليس مرهوناً بفعل القول والفعل المتضمّن في القول فحسب وإنما هو مرهون أيضاً بأحوال المتلقي ومقامات الخطاب، ومراعاة ذلك في إصدار الأفعال الكلامية يُعد من حذق المتكلم وبراعته ونجاح بضاعته على حد تعبير الكلاعي؛ وهنا يتأكد لنا أن موقف هذا الناقد من الربط بين أفعال الكلام والمقام «يوافق ما هو متداول عند المعاصرين؛ فالتداوليون المعاصرون لا يدرسون "الأفعال الكلامية" مجردة عن سياقها الكلامي والحالي أو معزولة عن غرض المتكلم، وإنما يدرسون إنجازية تلك الأفعال ولا يعتبرونها "أفعالاً كلامية" إلا بشرط أن تتحقق هويتها الإنجازية في السياق عبر الاستعمال..» (صحراوي، 2005)، كما تبرز هنا أهمية السياق والحال بالنسبة للأفعال الكلامية؛ وهو ما جعل «المرجع النهائي لأولئك التداوليين في تحديد مجالها الدلالي والتداولي لن يكون إلا بالسياق الكلامي وسياق الحال..» (صحراوي، 2005)، ومن ثم «لا ينبغي لنا أن نغتر بكون بعض المعاصرين يحاولون وضع لائحة للأفعال الكلامية من دون ذكر، أحياناً، لسياقها الكلامي أو الحالي..» (صحراوي، 2005)؛ أي لا يمكن في أي حال من الأحوال عزل الفعل الكلامي عن سياقه كما كان يعتقد هؤلاء.

ب- **أفعال الكلام في المدونة:** لقد وردت الأفعال الكلامية في كتاب "إحكام صنعة الكلام" متعددة الأنواع مختلفة المواضيع، فاخترنا -كي لا يطول بنا ما قصدنا اختصاره- فصل البيان لنكشف عن تلك الأفعال الكلامية وأنواعها ومقاصدها. ويظهر من عنوان هذا الفصل أن صاحبه خصصه للحديث عن البيان مفصلاً في «معنى البيان وأهميته مستشهداً بالقرآن الكريم والحديث الشريف، محتجا بعبارات بعض البلغاء» (الكلاعي، 1968). فكان عرضه

لهذا الفصل ذو منحى تداولياً مستنداً فيه على الأفعال الكلامية جاعلاً من هذا المفهوم التداولي وسيلة للتبليغ والإيضاح والإقناع. فعرف الكلاعي البيان انطلاقاً من القرآن الكريم وحديث النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: «قال الله سبحانه وتعالى: (الرحمن علم القرآن. خلق الإنسان علمه البيان) (سورة الرحمن: الآية 1-3)، فعدّ عزّ وجهه البيان في جملة نعمه الغامرة، وذكره في سائر آياته الباطنة والظاهرة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن من البيان لسحراً" (الكلاعي، 1968، صفحة 32). فقال بعض العلماء: هذا ذمٌ للبيان. واستدلوا على أن ذلك مذهب مالك بإدخاله هذا الحديث فيما يكره من الكلام (الكلاعي، 1968)، وورد الحديث في الموطأ في باب (ما يكره من الكلام بغير ذكر الله). وهذا - أعزك الله - جهل ظاهر وخطل بين. وكيف يكون ذلك كذلك وبالبيان تُستخرج الحقائق، ويُتوصل إلى معرفة الخلائق. وقد عدّه الله علينا من آياته، وجعله من آيات أنبيائه. وخص منهم نبينا عيه السلام بالحظ الأوفر والقسم الأفضل والأعلى. فكان صلى الله عليه وسلم أفصح العرب بيانا وأطلقهم بالخير لسانا، وأدلاهم بحجة، وأنطقهم بحكمة، وأنظّمهم بخطبة، ووصفه جلّ وعز بالبيان فقال: (لثُبَيْنَنَّ للناس ما نزل إليهم) (سورة النحل: الآية 44)، وقد مُدحت العرب بالبيان، وذمّت من جهله. وقال صاحب المنطق (حد الإنسان: الحي، الناطق المبين). فمن كان أعلى في المنطق رتبة كان بالإنسانية الأولى. «(الكلاعي، 1968)، فهذا التعريف الذي عرضه الكلاعي للبيان مبني على جمل خبرية هي أفعال كلامية تحمل في مضامينها قوى إنجازية، لها أغراض مختلفة مثل: التقرير والإيضاح والإبانة والتخصيص والمدح والذم والحجاج، نذكر منها: عدّد، ذر، تُستخرج، جعل خصّ، مدحت، ذمت، أفصح، أطلق، أدلى، أنطق، أنظّم. كما يمكننا تصنيف تلك الأفعال وفق تصنيف سيرل على النحو الآتي:

- الإلزاميات: في قوله على لسان صاحب المنطق (حد الإنسان: الحيُّ الناطق المبين)؛ فهذه العبارة تحمل فعلا إنجازيا يحمل غرضا إنجازيا هو إلتزام النطق بالبيان؛ ذلك أنه جعل حد الإنسان الحي هو النطق بالبيان، إلى درجة جعل الفيصل في التفريق بين الميت والحي هو النطق بالبيان.
 - الإخباريات: ومنها ما ورد على لسانه في ذكر فضل البيان في قوله: (تُستخرج منه الحقائق، ويُتوصل إلى معرفة الخلائق، وعدد من آلائه وجعله من آيات أنبيائه)، وفي ما أثنى به على النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: (وخص به نبينا عليه السلام بالحظ الأوفى والقسم الأفضل والأعلى. فكان أفصح العرب بيانا وأطلقهم لسانا، وأدلاهم بحجة، وأنطقهم بحكمة، وأنظمهم بخطبة)، وكلها أخبار يفيد بها السامع يراد منها الثناء على سيد البشر.
 - التعبيرات: ويظهر من اسمها -كما أسلفنا الذكر- أنها تفصح عن حالة نفسية أو شعور ما أو التعبير عن موقف ما، ويظهر ذلك في تعبير الكلاعي عن موقفه من العلماء الذين ذموا البيان محتجّين في موقفهم بتفسير كلام الرسول صلى الله عليه وسلم عن البيان على أنه ذمٌ للبيان مستدلّين على ذلك بمذهب مالك في قوله: (وهذا -أعزك الله- جهل ظاهر، وخطل بيّن)؛ لأن مذهب مالك ذكره في باب (ما يُكره من الكلام بغير ذكر الله) وليس في باب (ما يكره من الكلام) (صحراوي، 2005).
- والنظرية التداولية شأنها شأن الدراسات البلاغية العربية تقوم على فكرة تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء، وتجعل المعيار الذي يميّز بينهما هو معيار الصدق والكذب. فقبول أو عدم قبول الصدق والكذب هو معيار التقسيم بينهما ومن ثم يمكن القول بأن الخير هو الكلام التام المفيد الذي يقبل الصدق والكذب، غير أن الإنشاء هو الكلام التام المفيد الذي لا يقبل الصدق

والكذب (صحراوي، 2005)، وبالعودة إلى فصل البيان في كتاب الكلاعي فإننا نجد أنه يعتمد هذه الثنائية في التعريف بالبيان وتفريقه بين ما هو مذموم وما هو محمود من خلال موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من البيان، حين قال: «وقال بعض العلماء: إنما عني رسول الله صلى الله عليه وسلم من البيان ما يقصد به التلبس في الحق والتمويه، حتى يتشبه بالسحر الذي يأخذ السمع والبصر. قال: فهذا النوع من الكلام هو الذي كره النبي عليه السلام. وأما غيره فليس بمكروه مذموم، بل هو من أجل المعارف والعلوم» (الكلاعي، 1968) فالكلاعي يرى أن البيان الذي ذمّه النبي صلى الله عليه وسلم هو ما خرج تمويهاً للسامع أما ما كُشفت حقيقته دون تلبس وتمويه فهو محمود، زد على ذلك أنه عدّه من أجلّ المعارف والعلوم، ومن ثم نجد هذا الناقد قد جعل المعيار الذي يميّز البيان المحمود عن المذموم -في نظر الرسول صلى الله عليه وسلم- هو معيار التمويه والكشف؛ أي قد تجاوز بهذا المعيار معيار الصدق والكذب، ومن ثم فإن البيان في تصويره ليس ما كان صادقاً أو كاذباً وإنما ما أفصح وكشف عن حقيقة الشيء دون تلبس وتمويه بغض النظر عن القول إن كان خبراً أو إنشاءً، ولا شك أنه محق في ذلك مادام البيان يقوم أساساً على الإبانة؛ لذلك يتوجّب على المتكلم أن يبين عن معنى كلامه ويتعد عن التمويه الذي يضلّل السامع.

كما يربط الكلاعي أفعال الكلام بالمقصدية حين قال: «واحتج بعضهم في ذم البيان أيضاً بقوله صلى الله عليه وسلم: ما أعطي عبداً شراً من طلاقة اللسان. وليس كما تألوه. وإنما عني صلى الله عليه وسلم: الذي يُطلق لسانه لا يبالي بما نطق به من خير أو شر» (الكلاعي، 1968)؛ ذلك أن كل فعل كلامي يقوم على مفهوم المقصدية (صحراوي، 2005) ولا يمكن تأويل القول إلا بمعرفة مقاصده. وهنا يتأكد الربط بين العبارة اللغوية ومراعاة مقاصد

المتكلم(صحراوي، 2005) التي أكد عليها الفيلسوف سيرل حين عدّ الغرض المتضمن في القول عنصراً ومكوناً أساسياً من مكونات القوة المتضمنة في القول(صحراوي، 2005)؛ ذلك من خلال ذكر الكلاعي لحديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي فهم فهما مغلوفاً حين فسّره على نحو يُراد به ذمّ البيان، ثم بيّن الكلاعي المقصد من القول بأنه عدم المبالاة بالمنطوق شراً كان أم خيراً نتيجة طلاقة اللسان.

وفي موضع آخر من فصل البيان حاولنا استخلاص فروع الأفعال الكلامية التي صنفها أوستن -كما أسلفنا الذكر- إلى فعل القول، والقوة المتضمنة في القول، والفعل الناتج عن القول، وذلك من خلال القصة التي رواها عن النبي صلى الله عليه وسلم يذكر فيها موقفه من البيان في حوار جمعه مع عمرو بن الأهتم والزبير بن بدر فقال وهو يرد على من رأى في قول النبي صلى الله عليه وسلم «إن من البيان لسحراً»(الكلاعي، 1968) ذم للبيان: «والذي عندي في ذلك: أنه ليس في قوله عليه السلام كراهية، وأنه خارج مخرج المثل. والدليل على ذلك ما روي من أنه سبب قوله ذلك أن وفداً وردوا عليه صلى الله عليه وسلم فيهم قيس بن عاصم، والزبير بن بدر، وعمرو بن الأهتم. ففخر الزبير بن بدر فقال: يا رسول الله أنا سيد تميم المطاع فيهم، والمجانب منهم، آخذ لهم بحقوقهم وأضع من الظلم، وهذا يعلم ذلك مني؛ يعني عمرو بن الأهتم. فقال عمرو بن الأهتم: إنه لشديد العارضة، مانع لحوزته، مطاع في أدانيه. فلم يرضى عنه الزبير بن بدر، وقال: أما إنه قد علم أكثر مما قال، ولكنه حسدني مكاني منك، يخاطب النبي عليه السلام. فأثنى عليه عمرو شراً فقال: أما لئن قال ما قال، لقد علمته ضيق الصدر، زمر المرءة، أحرق الأب، لئيم الخال حديث الغنى، ثم قال: ولله يارسول الله ما كذبت عليه في الأولى، ولقد صدقت عليه في الأخرى. ولكن أرضاني فقلت بالرضا، وأسخطني فقلت بالسخط. فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من البيان لسحراً»(الكلاعي، 1968)، فمن خلال هذا الحوار الذي دار بينهم يمكننا استخلاص تلك الأفعال الفرعية للفعل الكلامي وفق تصنيف أوستن:

- فعل القول: وهو الفعل اللغوي الذي يتمثل في عملية النطق بعبارات وجمل مفيدة سليمة تحمل دلالة، ويظهر ذلك في تبادل الحوار بينهم.
- الفعل المتضمن في القول: ويسمى بالقوة المتضمنة في القول ونجده في أقوالهم من إصدار تقرير وتأكيد ونفي ووصف من خلال أساليب الذم والمدح والقسم مثل قولهم: المطاع فيهم، المجاب منهم، آخذ، أضع، شديد مانع، مطاع، علم، ضيق، زمر، أحمق، لئيم، حديث، ما كذبت، صدقت.
- الفعل الناتج عن القول: ويظهر لنا جلياً فيما تسبب فيه فعل القول والفعل المتضمن في القول من الجانب النفسي والسلوكي؛ ويتجلى ذلك في ردة الفعل الناتجة عن أقوالهم حيث ظهرت في حوارهم في الكلمات الآتية: لم يرض، حسدني، أرضاني، أسخطني. كما ظهرت ردة الفعل في كلام عمرو الأول حين لم يمدح الزبيرقان كما أراد هو بعد فخره بنفسه، وكلامه الثاني المتمثل في ذم الزبيرقان وآله حين قال عنه أنه حاسد مكانته من النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: ضيق الصدر، زمر المروءة، أحمق الأب، لئيم الخال.. إلخ، وكلها أوصاف تحط من شأنه وتتنقص من قيمته بعدما فخر بنفسه. ولا شك أنه قد اتضحت تلك الفروع الثلاثة للأفعال الكلامية التي صنفها أوستن من خلال هذا الحوار الذي جمع هؤلاء الثلاثة برسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي فروع يكتمل بها الفعل الكلامي لينجز ما عليه من تبليغ لمعاني ومقاصد وأغراض صاحب الخطاب، فإذا غاب أو اختل فرع من هذه الفروع الثلاثة فإنه سيعرقل عملية التواصل اللغوي، وسيحول دون نجاح الخطاب في إنجاز الأشياء والأفعال الاجتماعية بالكلمات.

الخاتمة: وأخيرا نخلص إلى أن مفهوم الأفعال الكلامية قد اعتمدنا عليه بوصفه أداة لقراءة كتاب "إحكام صنعة الكلام" قراءة معاصرة ليكون مدخلا ملائما لفهم مدى تطبيق المنحى التداولي في هذا المنجز النقدي ومن ثم توصلنا إلى ما يلي:

- مهما تعددت مفاهيم الفعل الكلامي فإنه لا يخرج عن مفهوم تلك القوة المتضمنة في القول والتي تهدي السامع إلى إدراك المعنى المتضمن في القول وأغراضه ومن ثم التأثير فيه قصد توجيهه أو تغيير فكره أو سلوكه ..إلخ؛
- يمكننا أن نعد الفعل الكلامي أول القرائن التداولية وأهمها على الإطلاق في بلوغ المتلقي مقاصد المتكلم وفهمها؛
- كانت أفعال الكلام لدى الكلاعي وسيلة في عرض قوانين صناعة الكلام والآداب التي وجّه الكتاب إلى الالتزام بها؛
- لقد تمظهرت الأفعال الكلامية في المدونة من خلال أساليب الخبر والإنشاء وتنوعت بحسب الأغراض الإنجازية التي تحملها؛
- تظهر أهمية فروع الأفعال الكلامية التي صنفها أوستن (فعل القول الفعل المتضمن في القول، الفعل الناتج عن القول) في حضورها وتضافرها في إنجاز الفعل الكلامي؛ فيكتمل بها الفعل الكلامي لينجز ما عليه من تبليغ لمعاني ومقاصد وأغراض صاحب الخطاب، ذلك أنه إذا غاب أو اختلّ فرع من هذه الفروع الثلاثة فإنه سيعرقل عملية التّواصل اللّغوي، وسيحول دون نجاح الخطاب في إنجاز الأشياء والأفعال الاجتماعية بالكلمات.
- لم ترد الأفعال الكلامية لدى الكلاعي-على غرار السابقين-إلا وسيلة لتقديم درسه النقدي، ولم تكن في أي حال من الأحوال غاية الدرس النقدي في حد ذاتها.

- وأخيرا يمكننا القول بأن الكلاعي قد أظهر البعد التداولي من خلال استناده على مفهوم "أفعال الكلام" في تأسيس نظرية للنثر العربي.

الهوامش:

- أبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي. (1968). إحكام صناعة الكلام. بيروت لبنان: دار الثقافة.
- الغامدي، ص. ب. (1995). منحى الكلاعي في نقد النثر. مجلة جامعة الملك سعود.
- إيمان زابور. (2019). ملامح التفكير التداولي في كتاب البيان والتبيين - أفعال الكلام أنموذجا. مجلة الكلم.
- جميلة روقاب. (2016). نظرية أفعال الكلام بين التراث العربي واللسانيات التداولية، أوستن وسورل نموذجا. الأكاديمية للدراسات الإجتماعية والإنسانية، قسم الآداب والفلسفة.
- طالب سيد هشام. (1994). نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب. مطبوعات جامعة الكويت،
- مسعود صحراوي. (2005). التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي. بيروت لبنان: دار الطليعة.
- منى محمد غيطاس. (2015). الخطابة والتداولية نحو أداة إجرائية لتلقي النص الخطابي. مجلة الدراية، كلية الدراسات الإسلامية العربية، القاهرة..